البحث السادس

الصابئة المندائيون والدين السومري والبابلي

العقيدة الدينية قديمة قدم الإنسان ووجوده على سطح الأرض ولكنها صعبة التحديد بدقة من حيث الزمان والمكان، وفكرة الدين ذات صلة وثيقة بالإنسان منذ أول نشأته ومع ذلك يمكن اقول إن الإيمان بالدين وجد في مناطق عديدة من العالم وبين أقدم الجماعات البشرية التي عثر المنقبون والآثاريون والأنثربولوجيون في مواقع استيطانهم على مخلفات لها علاقة بالدين، فإنسان نياندرتال مثلاً كان يعيش في العصر الحجري قبل نحو مائة ألف عام ظهر ما يدل على أنه كان متأثرًا بالدين، وإذا كان الدين ظاهرة وحاجة اجتماعية رافقت الإنسان منذ أول نشأته فقد تطور الفكر الديني من حالة بدائية ساذجة إلى حالة عالية متكاملة وإن لرقي الفكر البشري نصيب من هذا التكامل.

إن الحياة البدائية كانت محفوفة بالمخاطر والكوارث وقد قضى الإنسان قروناً لم ينفك خلالها عن معرفة منشئه ومصيره قاصر الإدراك دفعته ملاحظته لما يحيط به وحيرته أمام الأسرار التي يراها ولا يدرك كنهها، لذلك كان الإنسان يعتقد أن كائنات خارقة هي التي تسبب له الموت أو المرض أو الجوع، فالخوف من الموت ومن نتائج الحوادث الخطرة والدهشة من الأمور التي لم يستطع إدراكها واستعطاف الآلهة لكسب رضاها أو لدفع أذاها أو لشكرها على ما أنعمت عليه من خيرات كل هذه الأمور تضافرت على نشوء العقيدة الدينية وساهمت في تكوينها.

لذلك فدراسة الديانة تعد على قدر كبير من الأهمية لمعرفة تاريخ وحضارة أية من الأمم ومهما اختلفت الديانات وتباينت فيمكن القول بصورة عامة إنها تفترض وجود قوة عليا في الكون يسعى الإنسان دائمًا للتقرب إليها عن طريق العبادات والطقوس المعينة ولا شك في أن المعتقدات ترجع إلى أزمان بعيدة في

عصور ما قبل التاريخ (عصور ما قبل اختراع الكتابة) فإن ما خلفه الإنسان من آثار مادية مثل الرسوم على جدران الكهوف والدمى الطينية والحجرية قد أسهمت في الكشف عن جوانب من معتقداته التي حاول فهم وتفسير ما يحيط من الظواهر الطبيعية المختلفة.

إن ما نعرفه عن ديانات سكان وادي الرافدين في عصور ما قبل التاريخ قليل وغير كامل لأن معلوماتنا عنها تعتمد على المخلفات المادية التي تركها الإنسان في الكهوف والملاجئ الجبلية والأكواخ، وباحث الآثار ليس لديه وثائق دونت عليها الأفكار والممارسات الدينية لأن الكتابة لم تكن معروفة ولم تخترع إلا في منتصف الألف الرابع قبل الميلاد.

إن الأدلة على وجود مثل هذه المعتقدات الدينية ترجع إلى العصر الحجري القديم الذي يقع بين ١٥ – ٣٠ ألف سنة قبل الآن، إذ عثر في كهوف فرنسا وإسبانيا على رسوم جدارية ملونة تمثل أنواعًا متعددة من الحيوانات والطيور والأسماك التي كان الإنسان يصطادها ويعتمد عليها في غذائه، إذ يعتقد إنسان ذلك العصر إنه إذا ما رسم صورها فإن الحيوانات الحقيقية ذاتها سوف تقع تحت سيطرته، واعتقادًا منه بالمبدأ نفسه فقد صنع الإنسان في هذا العصر منحوتات صغيرة على شكل دمى من العاج أو العظام أو الحجر أو الطين يمثل قسم منها نسوة حبالى من أجل التشبيه بالقوى الخلاقة في الطبيعة ومن أجل التعبير عن مفهوم الخصب والتكاثر.

والحقيقة أن المصادر الكتابية عن الحياة الدينية لدى العراقيين القدماء متعددة كالقصص والأساطير السومرية والبابلية التي تتعلق بخلق الكون والإنسان وبعض المؤلفات الأدبية كالملاحم والنصوص السماوية الخاصة بالآلهة وألقابها والنصوص الخاصة بالاحتفالات الدينية ونصوص التنجيم أي رصد الكواكب والأجرام السماوية لمعرفة أثرها في شؤون الناس.

خصائص الديانة في بلاد وادي الرافدين :

في مقال للأستاذ بشير عامر جندال؛ ذكر عن الديانة في بلاد وادي الرافدين عددًا من الخصائص لعل من أبرزها ما يأتي:

١- **الحيوية :** أي الاعتقاد بوجود قوى وأرواح كامنة في مظاهر الطبيعة وتجسيدها بهيئة آلهة، وصار يرى أن هناك قوى فعالة في كل ما حوله من الظواهر الطبيعية، وتتجلى خطورة الظواهر لإنسان تلك العصور في بلد رسوبي منبسط لبلاد سومر وأكد في جنوب العراق حيث تتغير الظروف المناخية بشكل متطرف خلال فصول السنة، ولذلك جسد الإنسان تلك القوى بهيئة آلهة خصها بالعبادة والتقديس.

٢- **تعدد الآلهة :** أو الشرك فقد بلغت الآلهة البابلية عدد كبير وذلك لأنهم اتخذوا لمعظم ظواهر الحياة والكون آلهة، فكان للجو إله وللشمس والقمر والكواكب والسماء والأرض ولم يصل البابليون في يوم ما إلى مبدأ التوحيد أي عبادة إله واحد.

٣- **مبدأ التشبيه :** من المميزات البارزة في الديانة البابلية أنهم نسبوا إلى آلهتهم صفات البشر الروحية والمادية، فالآلهة حسب عقيدتهم كانت تفكر وتعمل وتأكل وتشرب وتتزوج، غير أنها تنفرد بصفة واحدة عن البشر ألا وهي صفة الخلود الأبدي، وبيدها أقدار الكون، وهي تعيش في السماء وتعبد في الأرض في معابد شيدها البشر.

٤- **الحياة الأخرى :** لم تتكون عند سكان وادي الرافدين فكرة واضحة معينة عن الحياة الأخرى، ولم يتصوروا عالمًا آخر سوى العالم السفلي الذي سموه عالم اللاعودة، فالعقاب والثواب على ما يبدو يكون في الحياة الدنيا.

٥- **الاستمرارية التاريخية :** بقيت المعتقدات والطقوس الدينية محافظة على جوهرها خلال العصور التاريخية المختلفة وحتى في الحقب التي تعرض فيها العراق القديم إلى حكم أقوام أجنبية.

اعتقد سكان وادي الرافدين أن الآلهة خلقت البشر ليعبدها بمختلف أشكال العبادة وإذا قصر في واجبه فإنه يعاقب في هذه الحياة، وتبعًا لذلك فقد صورت الآلهة أنها تعيش كما البشر يعيشون في مجتمع تحكمه قوانين وضوابط معينة، وعلى رأس هذا المجتمع يقف رئيس الآلهة ، إن الآلهة اقتسمت المناصب والمسؤوليات فيما بينها ، على غرار المجتمع البشري لتنظيم حركة الكون ومختلف الظواهر الطبيعية بصورة مستديمة، وللآلهة مجلس أعلى تجتمع فيه لتقرير المصائر واتخاذ القرارات المهمة التي تهم الآلهة والبشر، واعتقدوا أن سلطة الحاكم البشري مستمدة من الآلهة، أما الملوك والحكام فهم نواب عنها يمثلونها في الأرض ويحكمون باسمها ، فكانت الملوكية مقدسة لأن مصدرها السماء ، أما موطن الآلهة فقد تصور العراقيون القدماء أنه في السماء كما تصوروا آلهة أخرى تستوطن في العالم السفلي، أي عالم الأموات الذي يقع تحت الأرض.

ذكرنا شيئًا سريعًا عن الديانة السومرية والديانة البابلية في سياق حدثنا عن (فكرة مختصرة عن الأديان)... ولكون المندائيين عاشوا في نفس الرقعة الجغرافية في بلاد الرافدين وأكيد أثروا وتأثروا بهذه الأقوام وبهذه الأديان ، ولكن الأمر الغريب أن الدين المندائي كان موجودًا ومنتشرًا ، ودينًا موحدًا له تعاليمه ووصاياه التي أنزلها الله على نبي الله آدم رأس السلالة البشرية ونبي الله شيتل (شيت) ونبي الله سام بن نوح، وفي أور بالذات ظهر نبي الله إبراهيم ينادي بالتوحيد، إذن فكيف السومريون والبابليون أقوام غير موحدة ولديها تعدد الآلهة... فهل كان المندائيون بعيدين عنهم ، أم أن دينهم مغلق من البداية وهؤلاء أقوام مهاجرة، أم أن السومريين والبابليين كانوا موحدين ثم زاغوا عن التوحيد وأجبرهم ملوكهم أن يعبدوا الآلهة التي أوجدوها لهم الكهنة لتعزيز مُلك الملك الجبار في ذلك الزمان... إذ من الصعوبة ان يتم بناء الزقورات في بلاد ما بين النهرين والأهرامات في مصر وسور الصين العظيم إلا بظل حكم دكتاتوري يقوده دكتاتور قادر على استثمار موارد الشعب وتسخير الناس لإنجاز مثل هذا البناء لأعوام طويلة.

- السومريون :

لا توجد أدلة قاطعة عن أصل السومريين والأرجح أنهم من بلاد الرافدين أصلاً أو أنهم مهاجرين من مناطق قريبة لبلاد الرافدين ولوجود بيئة مائية متشابهة في جنوب العراق وإيران (منطقة المياه البهية) مصبات أنهار دجلة والفرات والكارون والكرخة وما تشكله هذه الأنهار من أهوار واسعة في السهل الرسوبي الغني بالخيرات ووفرة الطعام والأنعام... ولربما انحدروا من شمال العراق إلى جنوبه طلبًا للكلأ والماء ، الآراء متعددة وكثيرة والأدلة والآثار الأركولجية يبني عليها الآثاريون والباحثون آرائهم.

هنا يهمنا الدين السومري : السومريون اعتقدوا بتعدد الآلهة وذهبوا أن لكل شيء آلهة ، وأن الآلهة كبشر يتزوجون ويتناسلون ويتخاصمون ، ولكنهم يمتازون عن البشر بصفة الخلود ، وأهم آلهتهم :

أنليل : إله الهواء بمعنى سيد الريح والعواصف.

أنكي : إله الماء.

آن : إله السماء.

كي : إله الأرض.

وهناك عدد آخر من الآلهة لكل آلهة اختصاص ، ولهم معابدهم ودعواتهم وصلواتهم وأضاحيهم (قرابينهم) الكتب الدينية المندائية تحدثنا أن الدين المندائي نزل على آدم وحواء ، وأن الصحف الأولى من كتاب الكنزا نزلت بالتتابع على أنبياء الله آدم وشيتل وسام ، ولاحقًا على يهيا يهانة (يحيى بن زكريا)... وأكيد ذرية آدم وشيتل (شيت) وسام أدركوا السومريون والبابليين والأكدين وغيرهم من الأقوام التي سكنت العراق القديم ، فهل كان السومريون بداية موحدين ثم تحولوا ، وإذا قلنا كما يذهب بعض الباحثين أن المندائيين هم بقايا السومريين ، فها هم المندائيون يؤمنون بالله واحد رب الأكوان جميعًا ملك النور السامي ، فأين ذهبت آلهة السومريين. وهل هناك احتمال أن أسماء الآلهة هذه هي أسماء

ملائكة، حورت أسمائهم وفق الكتابة وبالتالي اللهجة السومرية المسمارية، قلنا إن التعليمات الربانية تنزل وحيًا أو إلهامًا، والوحي ينقلها لفظًا أو معنى، وإذا نقلت معنى للسهولة من قبل الموحي المرسل سيتكفل الوحي بصياغتها أو ينقلها إلى النبي الوحى إليه وهو يتكفل بصياغة المعنى وهنا يحصل التغير... لأن نقل المعنى وإعادة صياغته أكثر من مرة يحصل فيه نوع من الانحراف شئنا أم أبينا، أما إلهامًا فهذا الشخص الملهم أو كما يسمونه بالفيض الإلهي يحفظ مقاطع من الإلهام، وفي حالة عدم وجود كتابة أي قبل الكتابة المسمارية أو الهيروغليفية... تحفظ على الصدور ثم يدونون بعد زمن، وهذا وقت كافي لحصول إضافات أو حذف من صلب الموضوع، أو أن هذا الملهم ولغاية في نفسه يضيف شيء يعزز فيه مكانته والله أعلم.

ونحن لا نعرف بالضبط الزمن الذي اندفع فيه المندائيون إلى عمق الأهوار طلبًا للأمان ولحماية الطبيعة لهم، هل عندما سقط الكيان السومري أو عند دخول المسلمين بقيادة خالد بن الوليد ومن ثم بقيادة سعد بن أبي وقاص، وانتصار المسلمين على الفرس في معركة القادسية وفرضهم تعاليم الإسلام أو دفع الجزية على أتباع الديانات الموحدة مثل المندائيين والزرادشيين واليهود والمسيحيين.

كذلك لا نعلم بالدقة متى دونت الكتب الدينية المندائية باللهجة المندائية كلغة آرامية شرقية وكم من الزمن قد مر على حفظ الصحف الأولى (الكنزا ربا) إلى أن دونت باللغة الآرامية المندائية... أسئلة كثيرة لا توجد لها إجابات شافية، لأن تاريخ المندائيين خلال هذا الزمن الطويل مضطرب لأنه لم يدون أصلاً، والاعتماد كل الاعتماد على الكتب الدينية التي دونت لاحقًا.

يذكر لنا الأستاذ الدكتور الباحث المقتدر خزعل الماجدي في كتابه القيم (أصول الناصورائية المندائية في آريدو وسومر) الذي صدر عام ٢٠١٤:

إن الديانة المندائية نبع صافي من ينابيع الأغوار الروحية للبشرية وتطلع مخلص لعبادة إله واحد لا يسكن السماء فحسب بل في عالم أبعد من السماء هو (عالم النور) وكذلك أهلها الطيبون الصامتون على قهرهم وجروحهم والرافعون راية النور والمعرفة بوجه من يتعرض لهم بالجهل والظلام والتكفير... كلام جميل، ولكن اليوم معظم المندائيين كما تعلم يعيشون في دول العالم المتقدم، كما تعيش أنت في هولندا ولا يستطيع كائن من كان أن يتعرض لهم أو يفرض قسرًا عليهم أي شيء... نحن يا سيدي ليس مهاجرين بل مهجرين، وإذا اختار أجدادنا قديمًا الاحتماء بعمق أهوار جنوب العراق وإيران ودفعوا ضريبة العيش في مناطق متخلفة موبوءة، ها هم اليوم تعلموا الدرس واستفادوا مما يملكون من مال بالهجرة إلى بلدان متطورة تحبهم وتحترمهم وتفتح لهم أبواب العلم والمعرفة وانتظر يا سيدي جيل أو جيلين وستجد الشباب المندائي قد حقق مراكز علمية وأدبية مرموقة... أنا لا أنكر أن الوطن الأم غالي وعزيز... ولكن ما الحيلة وطابع البداوة والقبلية والمذهبية والتفرقة الدينية قد شجعه القادة الجدد وغذته أمريكا لضمان مصالحهم ولإضعاف قدرات الشعب العراقي العريق، كذلك يذكر لنا الدكتور الماجدي في نفس كتابه (أصول الناصوراثية المندائية في أريدودسومر).

(إن المندائية هي الغنوصية المبكرة وهي العرفانية بأدق وأكمل أشكالها... إن من حسن حظ الأديان والثقافات البشرية أن هذه الطائفة العريقة مازالت حتى يومنا هذا تمارس عقائدها وطقوسها وتعاليمها في جنوب العراق وفي الأهواز بشكل خاص).

والحقيقة يا سيدي إن المندائيين حاليًا تمركزوا في هولندا والسويد استراليا وأمريكا وكندا ودول أوروبية مثل الدنمارك والنرويج وفنلندا وإنجلترا وغيرها وأنشأوا لهم جمعيات ومنادي ويمارسون طقوسهم الدينية بكل حرية، وأنت في هولندا تستطيع زيارة مندي الطائفة في مدينة أو ترخت القريبة عن دنهاج وتستمع مع أصدقائك المندائيين لأنك صديق مقرب منهم فأنت تعرفهم وهم

يعرفوك ويقدروك لأمانتك العملية وحياديتك واجتهادك في التدوين وأكيد هناك من يتفق معك وهناك من يختلف ولكن يا دكتور يبقى حب الوطن العراق معجوناً في كل خلية من كياننا.

إن كلمة الناصورائيين تعني المؤمنين بالدين المندائي بعمق؛ أي عميق الإيمان، أما المندائيون فتعني المعرفيين ؛ بمعنى الذين عرفوا الحي العظيم بالعقل والإحساس ومواجد القلب ، أما كلمة الصابئون ففي الحقيقة هذه الكلمة كانت موجودة قبل الإسلام ، ولكن ذكرها في القرآن الكريم في ثلاث آيات بينات (البقرة، الحج، المائدة) رسخ هذه التسمية كصفة للمندائيين ، وتعني الصابغين الذين يصطبغون بالماء الجاري أي الذي يغطسون بالماء عند الصباغة (التعميد) لغرض الطهارة والنقاء، وبدء حياة جديدة خالية من الذنوب.

وهناك ثمة سؤال يحتاج إلى إجابة دقيقة، نلاحظ أن للسومريين آلهة لهم أسماء، البابليون لهم نفس الآلهة ولكن غيروا أسماءهم وفق اللهجة البابلية، وأن الأديان التوحيدية سمت هذه الآلهة ملائكة لغرض التوحيد بوجود آلهة واحدة، والبقية ملائكة يعبدون الله ويعظمونه ويسبحونه، ولأن العرب في زمن الجاهلية أقوام صحراوية تغلب عليهم البداوة يريدون أن يروا الأشياء ويلمسوها فأبدعوا لكل آلهة أو لكل ملاك تمثال يشبهونه به حسب تصورهم قسم من هذه التماثيل صنعوها بأيديهم من الطين أو الحجر أو الخشب أو التمر... وقسم جلبها التجار مع قوافلهم من الشام والعراق ، إنه مجرد سؤال قابل للنقاش ، وإلا بماذا نفسِّر أن أقوامًا متحضرة مثل السومريين والبابليين والأكديين والآشوريين عبدوا الآلهة وقريبين منهم المندائيين الموحدين ، ثم اليهود الموجودون في أورشليم الذين سباهم الملك البابلي نبوخذ نصر ، وجلب أعدادًا كبيرة منهم أسرى في بابل.

وأن الكهنة اليهود ومنهم العزير (عزرا الكاتب) الموجود ومرقده حاليًا في قضاء العزير في مدينة العمارة هو من كتب التوراة (العهد القديم)، في مدينة

بابل، وحقيقة الأمر أن الخلق والتكوين الذي ورد في التوراة أو الذي ورد في الكنزا ربا لا يشبه الخلق أو التكوين لدى السومريين والبابليين، إنما هناك تشابه وتقارب بين قصتي الخلق والتكوين لدى الديانتين اليهودية والمندائية باعتبارها ديانات توحيدية منبعها واحد، هو توحيد الحي العظيم الواحد الأحد وبالمقارنة نجد أن الأديان التوحيدية مثل المندائية واليهودية والمسيحية والإسلامية متقاربة جدًا في فكرة الخلق والتكوين... وقد شرحنا ذلك في الفصل الأول، ولغرض الإطلاع والمقارنة، سنذكر بإيجاز أبرز ما ورد في قصة الخلق والتكوين لدى السومريين باعتبارها ميثولوجيا سومرية.

أبرز ما ورد في أسطورة التكوين السومرية :

– في البدء كانت الإلهة نمو ولا أحد معها، وهي المياه الأولى التي انبثق منها كل شيء...

– أنجبت الآلهة نمو ولد وبنتًا، الأول (آن) إله السماء مع بعضهما، وغير منفصلين عن أمهما نمو.

– ثم إن (آن) تزوج (كي) فأنجبا ابنهما البكر (أنليل) إله الهواء الذي كان بينهما في مساحة ضيقة لا تسمح له بالحركة.

– أنليل الإله الشاب النشيط لم يطق ذلك السجن، فقام بقوة خارقة بأبعاد أبيه عن أمه، رفع الأول فصار سماء، وبسط الثانية فصارت أرضًا، ومضى يرتع بينهما.

– ولكن أنليل كان يعيش في ظلام دامس فأنجب أنليل ابنه نانا إله القمر ليبدد الظلام في السماء وينير الأرض.

– (نانا) إله القمر أنجب بعد ذلك (أوتو) إله الشمس الذي كله ضياء.

– بعد أن أبعدت السماء عن الأرض ، وصور ضوء القمر الخافت، وضوء الشمس الدافئ، قام أنليل مع بقية الآلهة بخلق مظاهر الحياة الأخرى.

وتستمر الأسطورة السومرية وصولاً إلى خلق أعظم إلههم مردوخ التي يجتمع مع جميع الآلهة، ويحتفلون بتتويجه سيدًا للكون، بعدها بنوا مدينة بابل وبنو له معبدًا في وسطها تناطح ذروته السحاب وهو معبد الأيزاجيلا.

طبعًا قصة الخلق والتكوين لدى السومريين تختلف عن قصة الخلق والتكوين عند المندائيين، وبقراءة القصتين يتأكد المرء من القوة التوحيدية في الديانة المندائية وأن كل شيء تمَّ بأمر الحي العظيم الواحد الأحد لا شريك له في ملكه وسلطانه، وليس له أب ولا ولد ولا يشاركه ملكه أحد، بينما قصة الخلق السومرية فيها تعدد الآلهة وفيها الأب والأم والأبناء.

- البابليون:

ظهرت الحضارة البابلية في جنوب العراق في مدينة بابل، مدينة الحلة حاليًا، وظهرت حضارة بابل عام ١٧٦٣ قبل الميلاد وبها سنّ قوانينه وشريعة حمورابي المشهورة، ومن أعظم ملوكهم نبوخذ نصر، الذي سبى اليهود عام ٥٨٧ ق. م، وبنى هذا الملك حدائق بابل المعروفة باعتبارها من عجائب الدنيا السبعة، تعتبر الحضارة البابلية من أعظم الحضارات عبر التاريخ وآثارها تشهد عليها في مدينة بابل الأثرية، وفي متاحف العالم، وقد حققت هذه الحضارة القديمة إنجازات في الفلك والرياضيات والطب والموسيقى وفي الزراعة والصناعة وتنظيم الجيوش.

لا تختلف الديانة البابلية عن الديانة السومرية بتعدد الآلهة وقد دون الكثير من المثيولوجيا البابلية عنوانًا للحضارة الشرقية القديمة وممثلة لأرقى الحضارات جنوب غربي آسيا، قلنا إنهم يشبهون السومريون في تعدد الآلهة ويعتبر مردوخ الإله الخالق... أما عشتار فإله الحرب والخصب وإله القمر اسمه سين وإله الشمس اسمه شامش وهو إله الحق والعدالة، وهذه الآلهة في مجملها لها علاقة بالكواكب والنجوم، والبابليون يقدسون آلهة السومريون ولكن أوجدوا لها

أسماء بابلية، وقد برعوا في بناء المعابد ولكل إلهة معبد في مدينة بابلية، فمثلاً الآلهة (أنليل) معبده في مدينة أريدوا ، و(عشتار) لها معبد في مدينة أوروك ، والإله (نبو) لها معبد في مدينة بورسيبا.

ويعتقد البابليون أن الإله حر في معاقبة الإنسان أو الصفح عنه ، أما تحديد الذنب فيتم بإطاعة الإنسان للآلهة والتمسك بتقديسها ، وكانت زقورة مردوخ في مدينة بابل من أعظم المعابد ، والبابليون يحتفلون بإلههم في عيد (كيتو) أيام الربيع حيث تنظم مسيرة مهيبة للآلهة خارج سور المدينة ، وتتلى عليهم الصلوات وتنشد الأناشيد وتقام الاحتفالات وتقدم الأضاحي.

وهنا تساؤل مشروع ونعود ونقول أين كان المندائيون الموحدون، وهناك قواسم مشتركة مع البابليين تتمثل في لبس الملابس البيضاء (الرستة) ، وتقديس الماء الجاري والإيمان بخلود النفس ، وأن النفس تبقى ثلاثة أيام بعد الوفاة قبل عروجها تذكر المتوفى بالأعمال (حسناته وسيئاته) خلال مرحلة حياته.

وأرى من الضروري أن نطلع على قصة الخلق والتكوين البابلية التي جسدتها لنا ملحمة (الأنيوما ايليش) التي تعتبر مع ملحمة جلجامش من أقدم الملاحم الإنسانية عبر التاريخ، لأنها كتبت في الألف الثاني قبل الميلاد، أي قبل ألف وخمسمائة سنة تقريبًا من كتابة إلياذة هوميروس ، وملخص قصة الخلق والتكوين عند البابليين:

(لم يكن في الأعالي سماء، ولم يكن في الأسفل أرض، لم يكن شيئًا في الوجود سوى المياه الأولى ، وكانت هذه المياه تغطيها طبقة من الضباب ، وكان هذا يمثل العماء الأول الذي انبثق منه ثلاث آلهة التي كانت تعيش في سكون سرمدي، وصمت مطلق، ممتزجة ببعضها البعض، وبدأت هذه الآلهة بالتناسل فولدت آلهة جدد قوية كلها حيوية ونشاط، سيطر الأبناء الآلهة على الآباء ، بعدها ولد الإله مردوخ عظيم الآلهة الذي إذا أراد شيئًا يقول له كن فيكون ، وتستمر القصة وكلها تعدد آلهة وتنشب حروب طاحنة بين الآلهة ينتصر فيها

مردوخ، الذي ينظم الكون الذي يخرجه من السكون إلى حالة الحركة والحيوية، وهو الذي رفع السماء وبسط الأرض وخلق النجوم والكواكب ، ثم خلق الإنسان.

بعض الباحثين يذكرون أن هناك أوجه تشابه بين قصة الخلق البابلية وقصة الخلق العبرية، والحقيقة هذا غير صحيح، إذ ليس هناك أوجه شبه حقيقية، فالديانة العبرية وكتابها التوراة ديانة توحيدية بينما الديانة البابلية ديانة تعدد الآلهة، وهناك من يعتقد أن هناك تشابه بين الديانة السومرية والديانة البابلية مع الديانة المندائية ، صحيح هناك نوع من التشابه بسبب البيئة المائية (ضفاف الأنهار والأهوار)، وبسبب ذكر عوالم النور وعوالم الظلام، والخير والشر، وعدد من أسماء الكائنات النورانية والظلامية، وتشابه في اللباس وفي بعض الشعائر والطقوس ، وكثير من المثيولوجيا الدينية، ولكن يبقى الدين المندائي دين توحيدي يؤمن بإله واحد رب الأكوان جميعًا ، ملك النور السامي هيي قدمايي السامي المتعالي المتفرد، بينما نجد السومريين والبابليين حوت دياناتهم تعدد الآلهة، ولم يذكروا لنا أن هذه الآلهة ما هي إلا ملائكة من عالم النور ، كل ملاك كلف من سلطة عليا بواجبات محددة.

المهم قبل اختراع الكتابة المسمارية كان كل شيء يتداول شفاهًا وبلغات ولهجات متعددة، ويبقى الماء عنصر الحياة الحيوي عاملاً مشتركًا وأساسيًا لكل هذه الديانات ، وكذلك عنصر النور رمز الحياة ، أكثر الأديان والأقوام المتجاورة والتي تعيش في بيئة متماثلة تأثر وتتأثر واحدة بالأخرى، وخاصة بعد ظهور اللغة الآرامية وانتشارها بين تلك الأقوام المتعددة، وحقيقة كانت هناك توجهات جادة للسومريين والبابليين والأكديين للتوحيد، ولكن هناك من جسَّد شامش إله الشمس وهناك من جسَّد سين إله القمر، ولكن المندائيون وبكل قوة وإصرار تمسكوا بتوحيدهم للحي العظيم ، وابتعدوا عن كل الصراعات السياسية بانزوائهم وابتعادهم عن مراكز القوة متمسكين بعقيدتهم التوحيدية ، مبتعدين عن الديانات التي تمجد الأصنام والتماثيل والكواكب والنجوم، ونادوا

بقوة إلى عبادة الحي العظيم الذي بأمره خلق كل شيء رب الأكوان جميعًا، الواحد الأحد لا يشاركه في ملكه أحد.

وفي خضم هذه الأحداث سبى البابليون اليهود في أورشليم في فلسطين كأقوام موحدة، وجاءوا بهم أسرى إلى أرض بابل فأصبح في جنوب العراق الديانة المندائية الموحدة والديانة اليهودية الموحدة وفي إيران الديانة الزرادشتية الموحدة، وهذه المرحلة تعتبر مرحلة التدوين باللغة الآرامية المنتشرة، وبدء المندائيون وغيرهم بتدوين النصوص على لفائف من الجلد وورق البردي والرقم الطينية، لكن كان في غاية الصعوبة الاحتفاظ بها كل هذا الزمن، فقد نالتها الفيضانات والحرائق وعوامل الزمن والهجرات القسرية، ولكن المندائيون تمكنوا من المحافظة على أدبهم الديني بالسرية والكتمان والانزواء في أعماق الأهوار الشاسعة، وهناك من الباحثين من يرى وجود تقارب كبير بين الديانتين المندائية والزرادشتية، نقول له إن المندائية جسدت الماء والنور رمزا الحياة، بينما الزرادشتية جسدت ضوء الشمس في السماء وضوء النار في الأرض.